جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY

كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

College of Sharia & Islamic Studies

مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Journal of College of Sharia & Islamic Studies

نصف سنوية – علمية محكمة

Academic Refereed – Semi-Annual

ISSN 5545 – 2305

المجلد ٣٣- العدد ٢ – خريف ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥ -٢٠١٦ م

Vol. 33- No.2, 2015-2016 A / 1437 H

المعاني الثانية في القرآن الكريم وأثرها في التفسير

تأليف

د. علي بن عبدالله آل غرمان الشهري

قسم الدراسات الإسلامية- كلية الآداب

جامعة الملك فيصل – الهفوف

ملخص البحث

للكلام العربي عند إطلاقه معنيان : أوليّ مباشر تفيده ظواهر الألفاظ ، وآخر من بعده لا يتحصّل إلا بالتأمل والنظر والفكر. فما كان من قبيل الأول اصطلح على تسميته : المعاني الأولى ، وما كان من قبيل الثاني سمى : بالمعاني الثانية . وهو أوسع وأبلغ الاثنين وأوفرهما قدراً وأبعدهما مدى ، ولا يبلغ تمامه أو يقارب إلا في الكلام الفصيح ، وقد ذهب القرآن من ذلك بوجه الكمال الذي هو حقيقة الإعجاز.

وموضوع هذا البحث هو تحقيق هذا المعنى في أسلوب القرآن الكريم ، وكشفه للدارسين ووصفه من خلال جملة من العناوين : كالتعريف به ، وتاريخ دراسته ، ومعرفة أبوابه في القرآن الكريم ، وأثره في التفسير . يأتي بين يدي ذلك مقدمة لبحثه ومن بعده خاتمة توجز بعض نتائجه .

Abstract

Meaning in Arabic utterances has two types: the first is direct illustrated by the stated words, and the second is reached only after careful study, contemplation and thinking. The first type has been termed "first meaning"; and the second, "implied meanings"

The second type of meaning has wider semantic possibilities, is superior rhetorically, and isof greater significance, all of which make it approximated or brought to its real self only in "Fasih" (classical) Arabic, the text of the Holy Quran which has perfected this type of meaning, which stands behind its real "Iejaz", i.e. being a unique text.

The present research work investigates the implied meaning in the Quranic style, describing its occurrence and showing its definition, its subcategories, and its relevance to the explication of the Holy text. The paper concludes with some results and recommendations for future research.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

للكلام عند إطلاقه صنفان من المعاني ، صنف نفهمه من الألفاظ المباشرة والتراكيب الظاهرة ، وهو أول ما يتبادر إلى الذهن من مراد المتكلم ، وليس بين المخاطبين في إدراكه كبير تفاوت ، لأنه أول ما يفيده الوضع اللغوي للكلمات المسموعة . وصنف آخر تضمره تلك الألفاظ والتراكيب لا يصل إليه السامع إلا بعد أن يتخطّى الصنف الأول بمزيد من التأني والتأمل والتحقيق حتى يخلُص إلى ما تحمله تلك الجمل في طياتها من المعاني . ولقد عُلِمت هذه القسمة منذ القدم وظلت معروفة بتعابير متعددة بين أهل العربية ، إلا أن تقرير العلوم ، ونشوء المصطلحات التي يقتضيها تداول الفنون مع تراخي الزمان جعل العلماء يدرجونها تحت مصطلح واحد ليسهل التعبير عنها ، ويصح الاهتداء إليها فوسموا الصنف الأول : بالمعاني الأولى .

والصنف الثاني : بالمعاني الثانية . والفرق بينهما فوق ما ذكرنا : أن المعاني الثانية تُمدّ العقل بقدر من الحرية أوسع ، يخرجه من قيد اللفظ إلى رحابة المعنى ؛ ليصل إلى ثمرات النصوص مهما دقّت وامتدت وتعددت . وقوام هذا الصنف وبلوغه الغاية الحسنى متوقف على أمرين : الأول : بلاغة اللفظ وفصاحته.

والثاني : قدرة الناظر وفطنته . والقرآن الكريم أكمل ما تحققت فيه الفصاحة من الكلم ، وأوفى ما احتمل لفظه من وجوه المعاني . بل هو غير مسبوق في حضور هذا الصنف وقوته ، وتعدد مناحيه ووفرته. ولكنه ما يزال ببعض الباحثين –أغلب الظن– حاجة إلى معرفة هذا المصطلح في الكتاب وتسمية أبوابه ، والوقوف على طرقه وشواهده ؛ ليتمكنوا حين النظر في القرآن الكريم من بلوغ أسراره ــ على قدر الطاقة ــ واستخراج مخبآته التي ينهض بها منطقه المبين ، وأسلوبه العظيم .

وذلك ما دعاني إلى تقييد هذا البحث الذي سميته : **بالمعاني الثانية في القرآن الكريم وأثرها في التفسير** . وقد بحثته على نحو متقارب وميسّر على خلاف ما ينبغي لمضمونه من العمق والاتساع ؛ لأن الإيجاز مظنة القبول وحاجة الساعة ، وحسبنا من ذلك تقرير أصوله ، ورسم حدوده ، ولمن شاء بعد أن تتضح أطرافه أن يزداد .

أما دراساته فهي ما تزال شحيحة إلى حدّ ما ، فبعضها يسير مفرق في الكتب ، وما جُمع منها على ندرته تُوسّع في قاعدته ومثاله حتى أوشك أن يفقد المصطلح خصوصيته ، ويلبّس على الطالب معرفته . ولضرورة التأريخ لنشوئه وتدرّجه أفردت ذلك تحت عنوان مستقل كما سيأتي بمشيئة الله ... وقد قسمت أجزاءه على هذا النحو :

* **التعريف بمصطلح المعاني الثانية :**

المبحث الأول : المعاني الثانية عند المختصين ونشوء المصطلح في كلامهم .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : المعاني الثانية في عرف المختصين ودراسات السابقين .

المطلب الثاني : أوائل من جرى هذا المصطلح في كلامه .

المبحث الثاني : أبواب المعاني الثانية في القرآن وأثرها في التفسير .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أبواب المعاني الثانية في القرآن الكريم .

المطلب الثاني : أثر المعاني الثانية في التفسير ودورها في اتساعه .

وإني لأرجو أن يكون في هذا تذكير ودعوة للباحثين وطلبة العلم أن يلتفتوا إلى هذا الباب النفيس؛ ليعطوه حقه من العناية والدرس ، حتى يتبين نفعه وتعمّ فائدته.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المراد بمصطلح : المعاني الثانية

تُنْبئ هذه الجملة عن أن لها قسيماً آخر سابقاً لها وهي تأتي بعده ، وهو ما يُسمّى بالمعاني الأولى . وقد يرد بلفظ الإفراد فيقال : المعنى الأول . وهو الحق فإن لكل قول معنىً مباشراً تفيده الألفاظ والتراكيب الموضوعة ابتداء ، لا يخطئه الفهم عند عامة متوسطي الناس ، ولا يمترى في إرادته وفهمه عقلاؤهم ؛ لأنه لا يحتاج في إدراكه إلى أكثر من معرفة المعنى اللغوي للوضع اللفظي المسموع ، ثم يأتي من بعد ذلك معنى آخر للكلام يحصل بإنعام النظر ، وإعمال الفكر وطول التأمل يحتمله النصّ ، ويقتضيه ويهدي إليه ويسمى : المعنى الثاني ؛ لأنه يأتي تالياً للمعنى الذي يفيده اللفظ الموضوع ابتداء . وهذا المعنى في الغالب يتحكّم فيه عاملان : بلاغة التركيب وعمقه. وفطنة الناظر وحذقه . فكلّما كان اللفظ غنياً والتركيب محكماً وكان الناظر على قدر من رفعة الذوق ولطافة الحسّ أعطاه النصّ من تلك المعاني بحسبه، وأفاض عليه من مكنونه بقدره ؛ من أجل ذلك حسنُ التعبير عنها بلفظ الجمع ؛ لأن من طبيعتها التوسّع والتنوع والتولّد والانتشار .

ولأن هذا المصطلح لم يكن قد نضج لدى كثير من الباحثين فإن مضمونه معلوم لديهم ، ومتداول بينهم بأساليب أخرى فتسمعهم يعبّرون عنه بالمعنى الخفيّ ، أو المعنى الباطن . وربما وصفوه بما وراء النصّ، أو أسرار النصّ . ومن بابه ما يُعرف بما بين السطور . بل قد عُدّ من قبيله ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ**. ﴾ سورة محمد الآية (٣٠) . أي : فحواه ومعناه ومنه قول الشاعر: وخير الكلام ما كان لحنا . أي : ما عرف بالمعنى ولم يُصرح به[(١)] .

ومن أحسن من قرأت له في تحقيقه ، وأراه أدلّهم على وصفه الإمام عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله (ت٤٧١هـ) إذ يقول :(الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد . وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق . وعلى هذا القياس . وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك

(١) القرطبي محمد ، تفسير القرطبي (٢٥٢/١٦) (١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م) .

المعنى دلالة ثانية تصل إلى الغرض . ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ، وقد مضت الأمثلة فيها مشروحة مستقصاه . أو لا ترى أنك إذا قلت : هو كثير رماد القدر . أو قلت : طويل النجاد . أو قلت في المرأة : نؤوم الضحى فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعنى من مجرد اللفظ ، ولكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنىً ثانياً هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها.) [(١)] .

وإذن فالمعاني الثانية هي معان أخرى غير ما يطالعك به النص مباشرة من لفظه ، وإنما هي حِمل آخر يضطلع به الكلام ، سبيلك إليه أن تتلقف المعنى الأول ثم تنتقل منه إلى تلك الغاية ، ولن تصل إلى ما تريد منها إلا إذا أحسنت فهم إشارات النصّ ودلالاته وإيحاءاته ، وما يعنيه الكلام الموضوع ، وما يمكن أن يحتمله من الغايات والمقاصد ، وهذا سرّ تفاوت الناس في فهمه .

المبحث الأول : المعاني الثانية عند المختصين ونشوء المصطلح في كلامهم .

المطلب الأول : المعاني الثانية في عرف المختصين ودراسات السابقين .

وإذْ قد عرفت ما يصدق عليه هذا المصطلح من المفاهيم والدلالات والمعاني ، وما يصح أن يُفسّر به فغير خاف عليك حينئذ أن مضمونه مطروق ، ومفهومه متداول ، وموضوعه حاضر منذ أوليّة اللغة وإن لم يعبر عنه بلفظ مشهور . وأنه أخذ يترقّى بها اتساعاً وعمقاً ، وقوة وجزالة كلما امتدت ظلاله تحت المفردة والجملة ، وتنوعت دلالاته . وكان مادة أهل العربية الغنية على اختلاف طبقاتهم ، ومعيار قدرتهم عليها وتمكنهم منها ، ثم أضحى بعد ذلك مجالاً لتنافس العلماء والمفكرين والدارسين على تراخي العصور، يتداولونه دراسة وبحثاً وتفنناً واستنباطاً ، حتى وصلوا إلى شرائع جديدة ، وطرائق عديدة في أنواع الفنون استقرت اصطلاحاتها فيما بعد وتميزت مسمياتها ، وكان أعظم مادتها وأفسح ميادينها وقمة ذراها كتاب الله المبين الذي سما بالعربية سموّاً يعزّ على قدرة

(١) الجرجاني أبو بكر عبدالقاهر (ت٤٧١هـ) . دلائل الإعجاز . قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر . القاهرة ، مكتبة الخانجي. (ص٢٦٢) . بدون سنة الطبع .

البشر ، قوة ورصانة وحفظاً وصيانة وبلاغة وإبانة بحيث اتخذه الباحثون حجة وإماماً في الشهادة على اللغة والحكم عليها ، يؤيدون به ما ادّعوا ، ويثبتون به ما قرّروا ، ويبنون عليه ما قضوا ، وتنافسته ألسنتهم وأيديهم كل فيما يُسّر له من العلوم ، واختط سبيله من الفنون على تنوعها واختلافها ، بما وجدوا فيه مما لم يعهدوا من الألفاظ الموقرة بالمعاني ، والجمل المحمّلة بالدلائل التي فتحت لهم آفاقاً عريضة ، واجتازت بهم حدود الألفاظ الظاهرة والتراكيب الموضوعة وبوادر معانيها إلى قيم معنوية أخرى عظيمة ، وحقائق علمية ثابتة ، ما كان لهم أن يجنوا ثمارها لولا أن القرآن أدناها لهم ودلّهم عليها ، فهم يتنافسون كؤوسها صبحاً وعشية ؛ ليطوفوا بها على قرّائهم هنية لا لغو فيها ولا كدر .

ناقش الأصوليون عبارة النصّ وما يصحبها وينبني عليها من إشاراته ودلالاته. وطفق أهل اللغة ينقّبون عن معانيها واشتقاقاتها ، ويصنفونها إلى فصيح وأفصح ، ومشهور وغريب ، وشارد وأصلي ومولّد . ومثلهم البلاغيون وهم أمة وحدهم إذ أشرعوا أبواب المعاني والبيان والبديع واستخرجوا كنوزها، وكشفوا عن أسرار النظم وعلل التراكيب ودلالة الألفاظ ، وحققوا صفة الإعجاز ، وصوروا اختصاصها بالتنزيل أبلغ تصور حتى عرف الناس معناها ، وتكلموا عن المجاز في اللغة وقد هُدوا إلى اسمه الذي يصدّق واقعه من أنه اجتياز للمعنى الأول إلى ما وراءه من وجوه المعاني الممتدة المتعدّدة . وجعلوا من بنيّاته وحواشيه الكناية والتعريض ، والاستعارة والتشبيه ، وفنون شتى غير ذلك كثير قرّروا نظامها ووضعوا ميزانها حتى أصبحت فناً وقانوناً معلوماً في تلك الصناعة له أصوله وقواعده .

وأما المفسرون فهم الذين أخذوا بأطراف تلك الفنون جميعاً ، وكانوا منها بمكان قريب ؛ رعاية للنص القرآني ، وأداء لحقه لأنه لا يرام جنابه ، ولا تفهم مقاصده ، ولا يهتدى إلى دلالاته إلا بها مجتمعة، وعن عملهم هذا خرجوا بأفانين التفسير وألوانه المتعددة ، ومذاهبه المختلفة ، وأحجامه المتفاوتة .

كل أولئك كان ميدان عملهم في الأعمّ الغالب هو المدد الذي يفيضه عليهم النصّ من معانيه الثواني، ودلالاته المتوالدة ، وإشاراته وتلميحاته الظاهرة والخفية . ولو وقفوا في عملهم عند حدود التراكيب الموضوعة والعبارات الصريحة المجردة لعقمت النصوص ، وفرغت من محتواها ، وأصابها الجمود وظهر هنالك عجز اللغة . ولكنهم أعملوا عقولهم بالنظر والتفكير ، وأقلامهم بالبحث

والتصنيف ، وتوسعوا مع النصّ كلما اتسع حتى توثقت الصلة بينهم وبينه ، وصار لكل منهم معه لغة مفهومة[1] لا يكشف عن مخبآته إلا عن طريقها . مظاهر هذا النشاط الفكري والحراك العلمي كانت تجري كلّها في ظل مصطلحات مفردة وتحت أبواب متفرقة لا يجمعها اسم ولا يميزها مصطلح، وكان كل أهل علم منهم يدْلى إلى وضعها بسبب حسب رؤيته واختصاصه ، ولكن أكثر ما يلتقون عنده هو ما قرره أهل البلاغة من المصطلحات ؛ لأنهم أكثر القوم احتفاء بصناعة النظم، وأشدهم عناية بفقه المفردة ، وأحظاهم بتتبع وجوه المعاني ، وتلك مسألة يحتاج إليها الجميع .

المطلب الثاني : أوائل من جرى هذا المصطلح في كلامه .

اندفع البلاغيون كما أسلفت في دراسة النصّ يخدمون الفنّ لذاته لا ليتوصلوا منه إلى شيء آخر كما يفعل غيرهم ، فكان منهم أن أخلصوا جهودهم له وقصروا عملهم عليه ، وتعمقوا في فهمه حتى أحكموا هندسة نظامه وقرروا أصول تركيبه وبينوا حكم الأولوية في ترتيبه . ومع كثرة معالجتهم له وطول إلفهم إياه وبُصْرهم بأحواله كان من الطبيعي أن تظهر في كلامهم مسمّيات عديدة ، ومصطلحات جديدة يفرضها واقع الحال الذي يعيشونه ، يستعينون بها على تحديد مقاصدهم وتمييز مفاهيمهم ؛ وليدلّوا بها جملة على أفرادها ، ومن بين هذه المسميات قولهم : المعنى الأول والمعنى الثاني وغيرها ، مما قد مرّ ذكره. إذْ بدأت ترد في كلامهم بناءً على ما عرفوه من أحوال الخطاب من أنّ له معنىً مباشراً قريباً يتلقفه كل سامع ، وتفيده الألفاظ الموضوعة ابتداء ، ثم ما يلبث مع النظر والفكر والتأمل أن يضيف إلى ذلك معاني أخرى غير المعنى المباشر الذي يسمّونه الأول ، وهو في عرفهم المعنى الثاني وإن تتابع أو تعدد وهكذا . ومن أبرز هؤلاء ولعلّه أولهم الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، الذي استعمل هذا التعبير في كلامه عن نظرية النظم في كتابه : دلائل الإعجاز وسماه : دلالة ثانية ومعنى ثانياً كما يتضح من كلامه السابق . وفي موضوع يليه وصف المعنى الأول : بالمعنى ، والمعنى الثاني : بمعنى المعنى قال : (وإذْ قد عرفت هذه الجملة فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول : المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه

(١) هي قواعد النظر في كل فن ، وأصول الاستدلال التي قرروها للباحثين .

بغير واسطة . وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسّرت لك.) [1] .

على أن هذا البيان من الشيخ عبدالقاهر لم يكن على سبيل الاصطلاح كما يظهر ، وإنما جاء في معرض الشرح والإيضاح ؛ لأنك لا ترى له علامة الاستقلالية عند إطلاقه بل جاء مصحوباً بشيء من البسط مع الدليل . وأما من جاء بعد عبدالقاهر فحُق لهم أن يستعملوه اصطلاحاً لأنه قد قرره قبلهم ، وهو إمام هذا الفنّ غير مدافع .

ومنهم كذلك السكاكي (ت ٦٢٦هـ) الذي حقق هذا المعنى بطريقته مترسّماً في ذلك خطى سلفه الجرجاني ، مستعيناً بفكرته كقوله : (وإذا عرفت أن دلالة الكلمة على المعنى موقوفة على الوضع ، وأن الوضع تعيين الكلمة بإزاء معنى بنفسها ، وعندك علم أن دلالة معنى على معنى غير ممتنعة عرفت صحة أن تستعمل الكلمة مطلوباً بها نفسها تارةً معناها الذي هي موضوعة له ، ومطلوباً بها أخرى معنى معناها بمعونة قرينة ومبنى كون الكلمة حقيقة ومجازاً على ذا .) . [2] وما لبث بعد ذلك أن استعمل لفظ الأول والثاني تعبيراً عن هاتين الدلالتين [3] .

ومنهم كذلك حازم القرطاجنى (ت٦٨٤هـ) الذي عرض للفكرة وأكدها ، فكان عمله هذا دفعة قوية لجهود من سبقه ، وإن كان من الواضح أنه قد استمد روحه منها وبنى عمله عليها ، ولكن في نطاق أضيق إذْ لم يبرح بها ميدان الشعر كما هو الحال في كتابه منهاج البلغاء يقول : (ولنسمّ المعاني التي تكون من متن الكلام ونفس غرض الشعر المعاني الأُوَل ، ولنسمّ المعاني التي ليست من متن الكلام ونفس الغرض ولكنها أمثلة لتلك أو استدلالات عليها أو غير ذلك لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأُوَل بها أو ملاحظة وجه يجمع بينهما على بعض الهيئات التي تتلاقى عليها المعاني ويصار من بعضها إلى بعض المعاني الثواني فتكون معاني الشعر منقسمة إلى أوائل وثوان

(١) الجرجاني عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز (ص ٢٦٣) لم تذكر سنة الطبع .

(٢) السكاكى محمد ، مفتاح العلوم (ص١٦٩) (١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م) .

(٣) انظر كتابه (ص ١٧١) .

– قال:– وحق الثواني أن تكون أشهر في معناها من الأُوَل لتستوضح معاني الأُوَل بمعانيها الممثلة بها ، أو تكون مساوية لها لتفيد تأكيداً للمعنى ...) [1] .

ومن هنا نستطيع القول إن الفكرة قد دخلت حيّز الاصطلاح ، وكتب لها الذيوع بعد رحلتها هذه من المشرق إلى المغرب . ثم بدأ العهد الجديد عهد تخصيص العلوم وتأصيل الفنون ، والدراسات المنهجية الدقيقة فنالت حظها منها بأطروحة علمية على يدي الدكتور : فتحي أحمد عامر بعنوان : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني . خدم فيها الفكرة ، وأبرزها كقضية لها حضورها وأهميتها في البيان العربي . ولئن كان عنوانها مختصاً بأسلوب الكتاب إلا أنه لم يكن في معالجتها بمعزل عن مناهج الشعر ، وأساليب النظم وطرائق العربية . على أنه قد توسّع في قاعدة هذا المصطلح ومثاله حتى كاد أن يفقده خصوصيته ، ويلبّس على الطالب معرفته ، ويحول دون تمييزه .

أولئك أعلام هذه القضية ورعاتها وأشهر دعاتها ، بيد أن الكثير سواهم قد كان له فضل المشاركة ولو في باب من أبوابها ، ولكن في الجانب التطبيقي دون أن ينسب عمله إليها ، أو يصرح برفع شعارها الذي عرفناه عليها .

المبحث الثاني : أبواب المعاني الثانية في القرآن وأثرها في التفسير:

المطلب الأول : أبواب المعاني الثانية في القرآن الكريم:

لا سبيل إلى حصر المعاني الثانية في القرآن الكريم أو حصر طرقها ؛ لأن مبناه على تعدّدها وتنوّعها، وتلك طبيعة الكتاب التي تقتضيها غايته ، وتستوجبها حكمته ، فهو كتاب القرون على تواليها وتباينها . على حاجاتها تتنزل آياته وبمطالبها تفي معانيه . ولأن الحياة والعمران معقودان بالتجدد والقوة فهما عنصران أساسيان فيه ليضمن صلاح الزمان ويكفل سلامة العيش . وإذا أصاب أهل قرن حظهم منه فليس بالضرورة أن يعرفوا حظ من بعدهم ؛ لأنه سابق للعهود مُعدّ للغيب نافذ للحجب .

(١) القرطاجنى حازم ، منهاج البلغاء (ص٢٦– ٢٤) . (١٩٨٦م) .

فالكل يعلم أن نصيبنا نحن أهل هذا الزمان من نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل(٨).

لم يكن في حسبان أحد ممن قبلنا أو يخطر على قلبه . وهذا التّزامن في تدرّج مدركاته معلق بأسبابه المقدّرة على العهود . وليس من القصور والعجز به أو الجهل بأهله أن يكون لكل أوان منتهى وحد في الفهم يقف عنده ، بل هي سنة محكمة لا يخرقها بعض الفتوحات أو التنبؤات التي قد تقع لبعض أهل ذلك العهد فيرمى بها على الظن فتصيب أو تقارب . ولقد استقر لدى أهل البصائر على مدى تاريخ بحثه أنه حمّال أوجه ، وأن معانيه غير متناهية ، فليربع العادّون على أنفسهم أن يحصوه ، وقد وصفه سبحانه بقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ سورة ص (٢٩) . أي : بورك فيه والبركة هي الزيادة[١] ولا تكون إلا من سبيل معانيه قال الراغب (ت ٥٠٢هـ) : (تنبيهاً على ما يفيض عليه من الخبرات الإلهية – ثم قال – : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحسّ وعلى وجه لا يُحصى ولا يُحصر قيل لكل ما يُشاهد منه زيادة غير محسوسة : هو مبارك وفيه بركة ...)[٢] . ولما كان المراد هو : البركة والزيادة في المعاني ذكر التدبّر لأنه به يتوصل إليها ويُنتفع بها ، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) : (وتدبّر الآيات التفكّر فيها والتأمّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدْبرُ ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة ، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يحل منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها.)[٣] وقد قرر الله هذا الأمر من الكثرة والزيادة وأكّده بما هو أعظم من ذلك مدى وأبلغ مفهوماً بقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ .... ﴾ لقمان (٢٧) .

---

(١) القرطبي محمد ، تفسير القرطبي (٣٨/٧) . (١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م) .

(٢) الأصفهاني الراغب ، المفردات (ص٤٤) . (١٣٨١هـ– ١٩٦١م) .

(٣) الزمخشري جار الله ، الكشاف (١٤١/٥) . (١٣٩٧هـ– ١٩٧٧م) .

قال القرطبي (ت ٦٧١هـ) : (وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله ، وهي في نفسها غير متناهية وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور .) [(١)] . وإذن فإن غاية ما في وسع المرء ومقدوره أن يحصي ما أصابته يداه واستوعبه فهمه ، ولا يحكم فيما وراء ذلك فإنه مرتهن بالغيب الذي خُصّ كل قدر منه بزمانه حيث منتهى حاجاته . على أن ما أُتيح لنا فهمه منه فيه خير كثير وغناء وسعة ، ثم هو جار في ذلك على مبدأ القسمة التي يقتضيها الإنصاف والتفاوت بين العاملين ، فلا يضن على طالب بالمزيد إذا سعى ، كما لا يصدر عنه أحد بحرمان ولو كان جاهلاً إلا من أبى . ومقتضى هذا التفاوت أن تتعدد طرق فهمه وتتنوع وجوه تحصيله ، وأن تكون سهلة ميسورة للجميع ، وإنها لكذلك حين جاءت على هذا القدر الكبير من الأبواب البيانية التي فاضت بذكرها كتب أهل البلاغة وغيرهم كذلك ، وبدا لكل منها نمط في العرض ولون في المعاني ؛ ليصب بها مواقع الحاجة ، ويحقق مختلف الرغائب. ومع هذا الحشد والتنوع جاءت تشريعاته محكمة ، فإذا قرر قاعدة كانت جامعة ، وإذا فصّل جملة كانت ولوداً ؛ ليستوعب الحوادث، ويساير الزمن فلا يتخلّف ولا ينكر أهله من أمره شيئاً. ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود (١).

لقد كان من جملة الحديث السابق ذكر بعض أبواب المعاني التي كانت باعثاً لإيقاظ الهمم نحو هذا المصطلح النفيس وتقدير قيمته ، والتي مضت قُدُماً بالباحثين إلى اتخاذ منهج علمي مؤصل لدراسته، ومعرفة صنوفه وتتبع أسراره ، كالذي اختطه البلاغيون والأصوليون وغيرهم ، إلا أنها لا تشكّل الغاية في هذا السبيل ، بل قد كان لأهل الدراسات القرآنية نصيب من ذلك كذلك فقد أشرعوا أبواباً أخر من المعاني لا تقل نفعاً وقيمة عما تقدّم ، بل تعد فتوحاً عظيمة تباعد الظنون عن مقتضى ركونهم إلى سابقيهم ، على أن لهؤلاء وهؤلاء على بعضهم حق الرحم الموصولة ، والشراكة بين أهل العلم فلا يُحكَم لأحدهم في شيء من ذلك على الآخر إلا بقدْر نسبي وربما تعاقبوا الأدوار

(١) القرطبي محمد ، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/١٤) . (١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م) .

فكان بعضهم معدوداً في بعض أحياناً ، والعربية لسان الجميع فلا تضن بشيء على أحد من بنيها.

فمن الأبواب القرآنية الرحبة في المعاني : الأمثال في القرآن الكريم بنوعيها المركبة كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ إبراهيم (٢٤) . والسائرة : كقوله سبحانه : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الأحزاب (١٠). وضرب المثل مذهب تحبّه العرب فتؤثره قولاً وتفضله سماعاً ؛ لما بنى عليه من وجازة اللفظ مع إحكامه، وإصابة المعنى مع وفرته ، وحسن القالب الذي حمل فيه من الطرافة أو الحكاية ، وللنفس في ذلك أنس وإقبال ، ثم هو يجتاز بالعقل من ضيق الألفاظ إلى سعة المعاني ، ولذلك لا نرى الألفاظ في كثير من الأمثال مقصودة لذواتها وإنما لما ترمز إليه من الحكم والفوائد والمقاصد ، يقول أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) عن الأمثال : (فهي من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسير مؤونتها على المتكلم مع كبير عنايتها وجسيم عائدتها . ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب ، والحفظ موكّل بما راع من اللفظ وندر من المعنى .)[1] . وفي إعلام الموقعين لابن القيم (ت ٧٥١هـ) (ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مَثَلُه من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً . فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكّية له ، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته)[2] . وأمثال القرآن قد بلغت من ذلك أصدق شاهد وأعلى مثال .

ومن أظهرها ما أوردته سابقاً من إيجاز اللفظ ووفرة المعنى وكثرته في كلا الضربين فالفكر يأخذ فسحته في الاستنباط المؤدي إلى تصوّر المراد كل بحسبه من عمق التفسير وقربه قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير المثل الأول من سورة إبراهيم : (فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح

(١) العسكري أبو هلال ، جمهرة الأمثال (٤/١) . (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) .

(٢) ابن القيم شمس الدين محمد ، إعلام الموقعين (٢٧٩/١) لم تذكر سنة الطبع .

في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رُسوخ الأصل ، وجمال المنظر ، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثِمار ، ومتعة أكلها . وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى ، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلاً لجمع التشبيه وتفريقه.

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد ، وضيق الصدر ، وكَدَر التفكير ، والضر المتعاقب . وقد اختصر فيها التمثيل اختصاراً اكتفاءً بالمضاد ، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيّبة[(١)] .

والحال كذلك في المثال الثاني من سورة الأحزاب وإن كان أوجز لفظاً فإنه يعطي من الدلالة قدرًا كبيراً في وصف الذعر والإشفاق الذي بلغ بالقوم مبلغه مما هم فيه .

جاء في الكشاف ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً وقيل عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم، والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن ثمة قيل للجبان انتفخ سحره . ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة[(٢)] .

ومن الأبواب كذلك : القراءات القرآنية ذات الوجوه المتعددة والروايات الكثيرة ، فمع ما فيها من التوسعة على الأمة في طرق الأداء ، وتسهيل القراءة لكلٍ على ما درج عليه لسانه ، واعتاده في لهجته وكلامه كذلك فيها من الجمال البياني الذي يقتضيه تصريف اللفظ على عدة أوجه[(٣)] ، واختلاف الجرس الصوتي لكل وجه ما يبعث في النفس النشاط ، ويدعوها إلى الإقبال ، ويُذهب عنها عوارض الكلل . غير أن الذي فوق ذلك كله أنه باختلاف القراءة يأخذ النصّ حقه في

---

(١) الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير (٢٢٤/٧) . الدار التونسية للنشر ، تونس . لم تذكر سنة الطبع .

(٢) الزمخشري جار الله ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تحقيق وتعليق : محمد مرسي عامر (٣٦/٥) ، دار المصحف الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م) .

(٣) أبو زهرة محمد ، انظر المعجزة الكبرى (ص٤٨- ٥٠) . لم تذكر سنة الطبع .

الإفصاح عما يحتمله من المعاني ، فكل حرف من أحرف القراءة يعطي معنى غير الذي أعطاه الذي قبله ، وهو في حق صاحبه المعنى الأول وما سواه معنى ثان وهكذا ، وعن ذلك تتولّد وجوه التأويل، وتتعدد الأقاويل ، وتقرر على اختلافها الأحكام . جاء عند القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) في فائدة علم القراءات قوله : (صيانته- أي القرآن- عن التحريف والتغيير مع ما فيه من فوائد كثيرة عليها الأحكام تُبنى . ولم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قارئ معنىً لا يوجد في قراءة الآخر ذلك المعنى . فالقراءات حجة الفقهاء في الاستنباط ومحجتهم في الاهتداء إلى سواء الصراط ، مع ما في ذلك من التسهيل على الأمة ، وإظهار شرفها وإعظام أجرها ، من حيث إنهم يفرغون جهدهم في تحقيق ذلك وضبطه ، حتى مقادير المدّات.)[1] . وقد عُدّ توارد الرواية على اللفظ الواحد واختلاف صوره باختلافها أحد معاني الإعجاز في القرآن الكريم كما قرر ذلك الرافعي (ت ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م) قال : (وثالثة تلحق بمعاني الإعجاز وهي أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معاني الشريعة ، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد وهذا المعنى مما انفرد به القرآن الكريم ، ثم هو مما لا يستطيعه لغوي أو بياني في تصوير خيال فضلاً عن تقرير شريعة [2] . ولذلك مازال الفقهاء وسائر العلماء يسندون ما يقررونه من الآراء الفقهية والاختيارات العلمية إلى ما عرفوه في ذلك الشأن من وجوه القراءات ، فيقولون الحجة في ذلك قراءة كذا وكذا[3] ، فكانت القراءات القرآنية بذلك مصدراً غنياً موازياً من مصادر التشريع بما تفيضه على النصوص من وجوه المعاني .

وهي وإن كانت كل قراءة مستقلة بنفسها في معناها إلا أن ما ورد في الآية من وجوه أخر يمكن أن يُعدّ معنى آخر لصاحب القراءة الأولى لا ينفي وجوده ولا يملك جحوده بل قد يستصحبه في

(١) القسطلاني شهاب الدين ، لطائف الإشارات (١/١٧١) . (١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م) .

(٢) الرافعي مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٤٧) . لم تذكر سنة الطبع .

(٣) أبو زهرة محمد . انظر : المعجزة الكبرى (ص٥٠) .

التأويل كوجه ثان للآية وله فيها من الحق كما للقائل بها ابتداء لأنها من حيث هي حق في مقصد التنزيل يقرّه الشرع وتؤيده اللغة والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى .

ومن أبواب المعاني الثانية في القرآن الكريم : الوجوه والنظائر ، وهو باب من العلم عظيم وله في التفسير مقام رفيع وخلاصة معناه : أن ترد الكلمة في أكثر من موضع من القرآن ويكون معناها في كل مرة غير ما جاءت له من قبل ، والذي يحدد ذلك المعنى أو يرجحه على غيره دلالة السياق ومناسبة الموضوع ، وقد يتكرر ورودها كثيراً ويتعدّد بذلك معناها ، حتى إن بعض أهل العلم أحصى لبعض هذه الألفاظ ما يربو على عشرين وجهاً[(١)] . وربما تعددت وجوه التفسير أو آراء المفسرين في معناها في الموضع الواحد فبلغت الوجهين والثلاثة بناء على معطيات النص واقتضاء الحال ، أو غلبة الظن وقوة المرجّح أو نحو ذلك ، فمثلاً كلمة "المحصنات" جاءت في القرآن بأربعة معاني : المسلمات والعفيفات والحرائر والمتزوجات[(٢)] ففي قوله تعالى : ﴿ **وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ** ... ﴾ المائدة (٥) أراد هنا بالمحصنة : الحرّة ، ووجه آخر وهو أن تكون عفيفة لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وغير عفيفة[(٣)] . وهكذا . فالمعنى الظاهر أو المرجّح في أي مكان يمكن أن نعدّه المعنى الأول للكلمة وما سواه معنى ثانياً .

ومن الأبواب كذلك : القصص القرآني وهو نسيج من الذكر وحده ، فلا أحْشد للمعاني ولا أطوع في التشريع ، ولا أرفق بالنفس ولا أحظى لديها من خطابه . ولكم تحدّث بعض الكاتبين عن القصص وأظهروا من عبره وعظاته ولكنهم يوشكون أن يقصروا غايته على ذلك ، وأنه عندهم مسوق لمجرد التعزّي والتسلية والتأسّي دون أن ينبهوا إلى فضائله الأخرى ، وشُغلوا عنها بما يحركه في

(١) كما ذكر ابن الجوزي في كتابه : نزهة الأعين النواظر عن معاني كلمة (الهدى) . (ص٦٢٦) . (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) .

(٢) انظر ابن الجوزي عبدالرحمن ، نزهة الأعين النواظر (ص٥٥٢) . (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) .

(٣) انظر ابن كثير عماد الدين ، تفسيره . (٣٢/٢) . (١٢٤٩هـ- ٢٠٠٨م) .

النفوس ويحدثه للعواطف من السرور والحَزن ، والغضب والرضا ، والخوف والطمأنينة ، والترقب والدعة إلى غير ذلك مما تتركه صور الحوادث في المشاعر ، وتبعثه المشاهد المتتابعة في القصة من الآثار ، وكل ذلك بلا ريب مما يجده المرء عند سماع القصص على اختلاف موضوعاته وأغراضه ، ولكن القصص القرآني أسمى من أن نقف به عند هذه الانفعالات ، وأكبر وأعظم بلاغاً وأخطر ، فهو خطاب للعقل وتحكيم له فيما يتلى عليه من أنباء الغيب ، ونداء له ليتحرك عنده داعي المسؤولية فيضع نفسه محل الخطاب ويميز الحق من الباطل . وفي إطلاعه على أخبار الأمم الماضية ، وإشهاده مواقفهم ، وإحضاره مجالسهم تقدير له ورفعة ، ودفع به قُدُماً إلى مقام حسن الظنّ أن يباين طريقة الذين صدفوا عن الذكر وعموا وصموا عن الهدى، فيأخذ من كل ذلك بأحسن ما سمع من تعريف بالله ، وترسيخ للعقائد ، وتعليم للشرائع ، وتزكية للنفس، وتقويم للأخلاق ، وتأدّب في الحوار ، وإحسان في الجدال ، مبادراً بذلك الزمان دون تردد أو نكول فإن هذا هو وجه العمل بمقتضى القصص . ليس الإخبار هو المقصود وحده في قضية القصص الذي توقف عنده من توقف يحسب أن ليس له أو عليه من القصص غير ذلك ، ولكن الخبر محمول على التكليف لكل سامع استوفى شروطه، فما من خبر إلا وراءه طلب في أغلب أحواله إذ ليس من اللائق بالمؤمن ولا من الصواب في شيء أن يقصر مثل قوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ...﴾ مريم (٥٥) على إرادة وصف حال إسماعيل عليه السلام في بيته وحسب ، بل على كل مؤمن أن يعلم أنه من هذا في محل الخطاب ودائرة التكليف، وأول المخاطبين به رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصديق ذلك قوله سبحانه لنبيه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾ طه (١٣٢) . ومثله قوله جل ذكره : ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ....﴾ مريم (٣١) وقوله : ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ مريم (١٤) وهكذا، كل أولئك يحمل صفة التشريع الذي لا مندوحة لكل مكلف عنه إذا لم يثبت الشرع خلافه . بل قد صرح تعالى وتقدس بنحو ذلك عقيب الأخبار كقوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الأنعام (٩٠) أي : استمع إلى سيرهم وأخبارهم ثم اصنع كما صنعوا .

وقوله تعالى : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الأحقاف (٣٥) . وبالمقابل فقد طالب بالذي هو خير من ذلك وأمثل كقوله سبحانه : ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ...﴾ القلم (٤٨) متجاوزاً بذلك حدود القدوة إن لم توافق إلى حسن البادرة وما هو أحمد لصاحبها وأليق . فهذه فضيلة القصص الذي يسوق الأخبار وفي أعطافها التكليف ليأخذ طريقه إلى النفوس ميسّراً مقبولاً . على أن للقصص دوراً آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو أنه بسياقه القصصي الذي يحكي سير السابقين وأخبار الغابرين يرينا سنن الله الجارية التي قضاها في الخليقة ، ويصف لنا شواهدها الحاضرة في القرون الخالية، وهي جزء من نظام الكون الذي لا يتغير ولا يتبدّل ، ولا يندّ عنه أحد في ملكوت الله ، وهي بمثابة المقدمات المحكمة التي تفضي إلى النتائج المسلّمة ، فكلما وجدت الأسباب تحققت المسببات لا مرية في ذلك كما قال جل ذكره : ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُمۡ بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ القمر (٤٣) ، وهو باب آخر يمنحنا إمكانية استشراف الغيب وقراءة المستقبل على قدر الطاقة البشرية ؛ لأن في تدبّر أنباء الغيب السالفة والحوادث السابقة عوناً على فهم وحسن استنتاج مخبآت العهود القادمة ، وعوائد الأزمان المتتابعة، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

تلك هي بعض أبواب المعاني الثانية في القرآن الكريم – نعم بعضها – فلا نجزم بحصرها فيما ذكر ، ولا يمكن أن يحيط بها أحد من البشر ؛ لأن أفكار القرآن متوالدة ومعانيه غير متناهية ، وكما قال أحد فضلاء العلم : (ليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى[1]. وأما معانيه الظاهرة فعلى وفرتها ما مقدارها في المعاني الثانية إلا قليل .

المطلب الثاني : أثر المعاني الثانية في التفسير ودورها في اتساعه:

لم تكن الدواعي متوافرة لأن يطلب الناس شيئاً فوق التفسير بالمأثور لفهم القرآن الكريم وذلك إلى حدود القرن الأول أو يزيد قليلاً لسببين : أولهما : قرب عهدهم بعصر النبوة الذي شهد الوحي

(١) دراز محمد ، النبأ العظيم (ص١٣٠) . (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م) .

ومتنزل القرآن ، وعرف أهله كثيراً من أحواله. والثاني : استجماعهم لآلة البيان حينئذ واكتمال خصائص العربية فيهم مما يسّر عليهم فهم القرآن وسهل معرفة أحكامه ومقاصده ، حتى إذا خرج أهل الجزيرة منها وانتشروا في الآفاق ، واتسعت الفتوح وكثر الداخلون في الإسلام ، وامتزج العرب بغيرهم من الأجناس أخذت العربية تهن في نفوس أصحابها ، وتعلو على أفهامهم وهي على غيرهم من ذلك أشد وأكبر نشأت هنالك الحاجة إلى حلّ كثير من ألفاظ القرآن وتقريب معانيه ، وتأويل ما لم يسعفهم النقل بشيء من تأويله ، ولم يكن إلى ذلك من سبيل إلا بالرجوع إلى العربية لأنها لغة القرآن ولسانه الناطق المبين فتُدرس خصائصها ، وتعرف طرائقها ، وتجمع مذاهب أهلها فيها ؛ ليتخذ من أمثال ذلك دليل يسار عليه في فهم القرآن الكريم ، وتحصيل دلالاته وهداياته . وهكذا برز لهذا العمل الجليل والجريء في آن رجال أعلام تحملوا خطر البداءة بمثله لكونه بدعاً في طريقة التفسير أن سلكوا سبيلاً لم تكن سالكة من قبل ولا مألوفة اللهم إلا إشارات يرسلها حديث نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ) مع ابن عباس (ت ٦٨هـ) – على احتمال صحته– ، وسؤالاته له منحها القبول عند الناس مكان ابن عباس من بيت النبوة ومن تأويل القرآن أما ما سوى ذلك فقد كانت مسألة منكرة أن يُعدل فيها على هذا النحو عن المأثور في تفسير القرآن إلى غيره . ولكنهم قدّروا الحاجة ورأوا أنه كلما ضاقت دائرة علم الناس بالعربية وازداد غموض المعاني عليهم اتسعت حاجتهم إلى هذا النوع من البيان ، وإزالة ذلك الغموض ، والتوسعة عليهم بقدره .

شرع هؤلاء في عملهم من أمثال أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) في كتابه مجاز القرآن ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) في معاني القرآن ، والأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) في معاني القرآن وغيرهم . ولعلمهم بخطر ما أقدموا عليه كانوا على تحوّط شديد وتثبت ظاهر في إقلال وإيجاز ؛ لئلا ينفر الناس من صنيعهم، أو يشغب عليهم أحد في عملهم ، ومع ذلك لم يسلم من يدل ذلك على أنه أولهم وهو أبو عبيدة رحمه الله إذ لقي من اللوم والتقريع ما لم يلقه أحد مثله ، ولكن الحال والزمان كانا نصيرين لأبي عبيدة ، فما لبثوا غير يسير حتى غدا عمله هذا فتحاً لهم ورحمة عليهم ، فبعد أن كان غرضاً للنقد أضحى مرجعاً أصيلاً في بابه ، ليس في وقته فحسب بل على مرّ العصور ولأئمة متعاقبين كبار كابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والبخاري (ت ٢٥٦هـ) والطبري

(ت ٣١٠هـ) وأقران لهم كُثْر ساروا على نهجه واقتبسوا طريقته[١].

طما بحر العلوم في ذلك العصر ، وفاضت الثقافات مع اتساع البلاد الحاضنة للإسلام ، واستبحر العمران ، وتجددت الحوادث ، وكثرت الحاجات وتنوعت ، ونتج عن ذلك عوامل عدّة كان لها كبير الأثر في الحياة الفكرية لذلك العصر يمكن أن نجملها فيما يأتي :

أولاً : انتشار العجمة وتفشّيها ، وما استدعاه ذلك من التصحيح والتصويب ، والدفاع عن كيان العربية.

ثانياً : حركة الترجمة ونقل العلوم ، وما استتبعه من حماية الدين ، وتقرير المعتقدات ودرء الشبهات .

ثالثاً : نشوء الفرق والنحل ، وما أورثه ذلك من خلافات وانقسامات ، وتباين في المعتقدات .

رابعاً : التنوع المذهبي والخلاف الفقهي وما تولد عنه من محاورات ومناظرات وتنوع في الأفكار[٢].

كل أولئك اقتضى أن تُحدد مشروعيته وتقرر أصوله ، وتوضع قواعده وتعرف مرجعيته ويستبين حكمه. ولم يكن أهل التفسير والشريعة عموماً بمعزل عن هذا التغيير فعاشوا هذه التطورات ، وكان لها تأثير عليهم كما كان لها على غيرهم . بل كانوا بعضاً من عناصر ذلك التغيير الكبير والتطور المثير بما نشأ بينهم من مذاهب ، ونجم فيهم من فرق ، واستقل عندهم من جماعات ، فكان من الطبيعي أن يصبغوا بذلك عملهم ويظهر أثره في نتاجهم ، ولاقى ذلك الانفتاح الكبير موضوعاً ثرياً ومجالاً رحباً وفضاء عظيماً من آي القرآن الكريم ، وإشاراته ودلالاته استوعبت التعامل بكفاءة عالية وقدرة بالغة مع تلك المتغيرات والحوادث والأفكار والثقافات دون عجز أو جمود أو قصور أو ضيق . وكان الباب العظيم الذي ولج منه الجميع إلى ذلك باب اللغة العربية ، فقد منحتهم الحرية المطلقة في أن يعبروا عن آرائهم، ويقرروا مذاهبهم وأن ينشروا نحلهم ، معتمدين في ذلك على ما أتاحت لهم ألفاظها من المعاني ، وما احتملت تراكيبها من وجوه المقاصد المباشرة والثواني . إذْ أخذ كل منهم يقرر مشروعية ما يراه ، وصدق ما يعتقده عن طريق فهمه لآيات الكتاب ، وأنه

---

(١) انظر أبا عبيدة معمر بن المثنى ، مجاز القرآن مقدمة المحقق (١٧/١) .

(٢) الذهبي محمد ، التفسير والمفسرون (١٤٦/١) الهامش (١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م) . وقد عرض أحمد أمين لشيء من ذلك في مواطن متفرقة من كتابه : فجر الإسلام .

هو الأقرب إليها ، والأجدر بشهادتها ، حتى كثرت في ذلك الأقوال وتضخمت المؤلفات ، وبلغ ما فيها قدراً كبيراً من الترف الفكري ، والتكلف العقلي المجاوز للحد . لم يسلم من ذلك فنّ ينتمي إلى العربية إلا وظهر أثر ذلك فيه وراج بين أهله . ومن أجلى الصور المعبّرة عن ذلك وأوسعها مدى ما نراه عند المفسرين الذين هم أحظى بالقرآن ، وترجمة معانيه ، واستنباط دلالاته ، فقد أخذوا يتعاملون مع النص القرآني بصورة أخص وبتتبع أدقّ مما سواهم ؛ لكونهم المعنيين بالصنعة حتى أتوا في تأويله بما يقضى منه الناظر العجب ، ولم يدعوا وجهاً تحتمله العربية في معنى الآية إلا وقفوا عليه ، واستخرجوا خبيئته وسبروا غوره . ولم يكن ذلك ليتحقق لهم لولا أنهم عبروا مجال الظاهر في الخطاب القرآني واجتازوه مبكراً وسريعاً إلى أعماق النص ومعانيه الخافية ومآلاته العديدة . وهم بعملهم هذا بقدر ما يكشفون عن بلاغة القرآن وعلوّ خطابه وسعة استيعابه كذلك هم يكشفون عن مدى نهوض اللغة بحجم هذا الخطاب ، وقدرتها على حمل مقاصده ، والبلوغ بها أحسن غاياته . عرض الزركشي (ت ٧٩٤هـ) لقضية التأويل في القرآن وساق أمثلة تشهد للكتاب واللغة بمثل هذا ، ومن ذلك ما جاء في الحث على الجهاد والدعوة إلى النفير ووصف النهوض له قال : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ التوبة (٤١)

قيل : شيوخاً وشباناً .

وقيل : أغنياء وفقراء .

وقيل : عزاباً ومتأهلين .

وقيل : نُشّاطاً وغير نُشَّاط .

وقيل: مرضى وأصحاء .

وكلها سائغ جائز والآية محمولة عليها ؛ لأن الشباب والعزاب والنُشّاط والأصحاء خفاف وضدهم ثقال .... إلى أن قال :- وقيل في القرآن ثلاث آيات في كل منها مائة قول قوله : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة (١٥٢) ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ الإسراء (٨) و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن

(٦٠) فهذا وأمثاله ليس محظوراً على العلماء استخراجه ، بل معرفته واجبة ولهذا قال تعالى : ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ آل عمران (٧) ولولا أن له تأويلاً سائغاً في اللغة لم يبينه سبحانه) [(١)].

بمثل هذا من التأويل والاستنباط والتحليل قابل المفسرون الخطاب القرآني ، كل بما فتح الله به عليه، وهداه إليه فهمه وعقله من المعاني ، فهذا يوفق إلى معنى ، وذاك إلى اثنين ، وآخر لثلاثة وهكذا ، حتى أثرى جانب التفسير ، وكان لمكاسبهم العلمية ، وانتماءاتهم الفكرية أثر قوي في توجيه ذلك الفهم، وخدمته ونشره فجاء مصطبغاً باللون الذي ينتهجه صاحبه ويهواه ويتقنه ، فهذا الذي يغلب عليه اللون اللغوي، وهذا اللون الفقهي ، وهذا اللون الفلسفي ، وهذا اللون الكلامي ، وهذا اللون القصصي ، وهذا أفاض في الروايات وذاك في القراءات إلى آخر ما تناهى إليه سعي المفسرين في هذه الجوانب .

وأعقبهم وارثوهم على توالي القرون ، يضيفون الجديد ، ويشرحون ويختصرون ويعلقون . ولا ريب أن تلك سنة مقضية باقية ما بقى القرآن الكريم . ولولا ما يحتمله خطاب القرآن من تلك المعاني ، ولولا ما هي عليه من السعة والمرونة والكثرة والتجدد لما أدرك الآخِر من أرباب التفسير مع الأول شيئاً ، ولذهب الأولون منهم بما يمنحهم ظاهر الآيات من المعاني وتوقفت النصوص عن العطاء عند ذلك ، ولكن الله قضى أن يكون لكل خلف نصيب منها تقوم به حياته ، وتُقضى به حاجاته لا يبخسون من حقوقهم شيئاً.

كل ذلك السخاء في العطاء مرده إلى ما تعلق به العاملون على تأويله قديماً وحديثاً من أسباب المعاني التي متى وقفت بإزائها وجدتها طرائق شتى ، منها ما ينقلك إلى ثمرته من قريب ، ومنها المتوسط ، ومنها البعيد ، وكل له من النظر والفكر بحسبه ، ولكن القوام فيها جميعاً وإن طال المسلك في بعضها أن تحصل على قدر من القناعة والرضا بما حملت عليه وما انتهت إليه .

---

(١) الزركشي بدر الدين ، البرهان في علوم القرآن (١٥١/٢) . (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م) .

*** مجاوزة الحدّ المقبول في استنباط المعاني .**

غير أن الأمر في هذه الحال قد لا يقف بك عند هذا الحدّ وإنما قد يسلمك إلى معنى لا تجده سائغاً مقبولاً مهما تلمست الحيل في ربطه بأصله المزعوم ، وتلك طبيعة كل إمعان وإيغال في شأن كهذا أن يجاوز حده ، ويظهر منه ما ينبو عن أصله . وعن هذا السبيل صدر ضرب من التفاسير المنحرفة عن الطريقة، المحمودة ، تفاسير تحكمت فيها الأهواء والملل تسمى : التفاسير بالرأي المذموم ، وقد كثرت وانتشرت، ولقى أهلها مساغاً لتأييد نحلتهم بها وبث مقالتهم فيها ، واشتد تعلّقهم بمفهوم المعاني الباطنة زعماً منهم أنها من قبيل المعاني الخافية الثانية التي يتفاضل في فهمها الناس ويتفاوتون في إدراكها ، ثم قالوا بلسان حالهم: ما علينا ألا يفهمها البلداء . ومثل من هم على ذلك من بعض الفرق المنحرفة التي ركبت متن اللغة عدوا بغير حق ، وسخرتها وسيرتها لخدمة أغراضها ونصرة أهوائها مما يجعل العاقل يقف أمام تلك التأويلات التي يأتون بها لبعدها حائراً مذهولا يرجع أحياناً على عقله بالتهمة وعلى رأيه بالفند وهو من كل ذلك بريء . وأحسب مثلها طعناً في حق الصحابة رضي الله عنهم ، ورمياً لهم بواحد من أمرين: إما أنهم لم يبلّغوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمعوا كل ذلك منه . وإما أنهم ومن جاء بعدهم من السلف لم يصلوا في فهم خطاب القرآن إلى ما وصل إليه منه هؤلاء، وكلا الأمرين منكر عظيم يشهد بما هم عليه من الإفك والبهتان.

وعلى أي حال فإن هؤلاء وإن حاولوا تعكير صفو التفسير ، وثني النصوص عن مآلاتها الصحيحة وتأويلاتها المقبولة فإنهم بعملهم هذا لن يذهبوا بقيمة المعاني الثانية للقرآن ، ولن يكون ما يزعمون من الباطل يوماً بمانع لأهل الحق من ورود هذا المنهل العظيم . بل تبقى المعاني الثانية عندهم مصدراً غنياً موثوقاً ، ومرجعاً حتمياً يحكم في الحوادث ، ويقضى في النوازل ، ويفصل في المسائل ما سارت تلك المعاني في ركاب العربية ، واتخذت من وجوه اللغة مخارج لها ، وبراهين تحمل عليها. ولعلّ هذا أظهر أسباب صيانة القرآن وحفظه الذي يصور حاجة الناس إلى وجوده ، والتي تتجدد بتجدد الأيام . وإذا كان الوحي قد انقضى منذ الزمن الأول فإن المعاني الثانية ما هي إلا صورته الحية ، وصوته النديّ فينا، وسرّ خلوده وآية إعجازه . فلله الحمد والمنة.

الخاتمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

غير يسير أن يُجمع مثل هذا الموضوع في بحث أو مقالة فعسى ما قُيّد هنا من أصوله يذكر بما اختُصِر من فصوله ، وإذا صدق عزم المرء وصحّت نيته فُتحت له بإذن ربه الأبواب ، أما النتائج فهي شهود قدْرِه وخَطَره وهذا بعض منها :-

١- المعاني الثانية مصطلح جامع تندرج تحته أبواب بلاغية كثيرة . قرر أصولها وأفاض في شواهدها القرآن الكريم .

٢- المعاني الثواني دليل على اتساع معاني القرآن ، وتعدد دلالاته وكثرتها . وليس المراد بها الوقوف بالنصوص عند المعنيين وحسب .

٣- يمكن أن نعدّ القراءات معاني أولى عند أصحابها وأتباعها ، وما يقابلها من قراءات ووجوه أخرى عند غيرهم معاني ثانية ، بدليل اعتبارهم لها ، واحتجاجهم بها عند الحاجة .

٤- المعاني الثانية هي سبب نهضة التفسير واتساعه ، وسرّ ذيوعه وتنوعه وانتشاره .

٥- المعاني الثانية منحت المفسرين مجالاً رحباً لتوظيف أفهامهم وقدراتهم ، والتعبير عن توجهاتهم، وتحديد ألوان ثقافاتهم .

٦- المعاني الثانية من العوامل القوية في مسايرة القرآن للحوادث ، وتجدده بتجدد الزمن ، وهي صورة الوحي التي تحمله وتحفظه نديّا إلى قيام الساعة .

٧- وعن طريقها كذلك فُتحت أبواب عِراض ولج منها أهل الأهواء والأغراض فحمّلوا النصوص فوق ما تحتمل ، وعاثوا في الكتاب عرضاً وطولاً ، وأكثروا في تأويله الفساد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

١- أبو زهرة محمد . المعجزة الكبرى . ملتزم الطبع والنشر : دار الفكر العربي . القاهرة .

٢- أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ) . مجاز القرآن . عارضه بأصوله وعلق عليه : الدكتور : محمد فؤاد سزكين . الناشر ، مكتبة الخانجي بمصر .

٣- الجرجاني أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد النحوي (ت ٤٧١هـ) . دلائل الإعجاز . قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر . القاهرة مكتبة الخانجي .

٤- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ) . نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر . دراسة وتحقيق : محمد عبدالكريم كاظم الراضي . الطبعة الثالثة . مؤسسة الرسالة بيروت – ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٥- ابن كثير عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم. اعتنى به وخرج أحاديثه : محمد أنس مصطفى الخن . الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة ناشرون . دمشق بيروت ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

٦- دراز محمد عبدالله . النبأ العظيم . الطبعة الخامسة . دار القلم . الكويت – ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٧- الذهبي محمد حسين . التفسير والمفسرون الطبعة الثالثة . الناشر . مكتبة وهبة القاهرة – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٨- الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ) . المفردات في غريب القرآن. تحقيق وضبط : سيد كيلاني . الطبعة الأخيرة شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

٩- الرافعي مصطفى صادق . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . دار الكتاب اللبناني .

١٠- الزركشي بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ) . البرهان في علوم القرآن . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثالثة . دار الفكر – ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

١١- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد جار الله (ت ٥٣٨هـ) . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تحقيق وتعليق : محمد مرسي عامر مراجعة الطبع : الدكتور : شعبان محمد إسماعيل . الطبعة الثانية . الناشر : دار المصحف القاهرة – ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م

١٢- السكاكى أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت٦٢٦هـ) مفتاح العلوم . الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م .

١٣- الطاهر محمد بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م) ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر – تونس.

١٤- العسكري أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت ٣٩٥هـ). جمهرة الأمثال. حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه : محمد أبو الفضل إبراهيم . عبدالمجيد قطامش. الطبعة الأولى ملتزم الطبع والنشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة – ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

١٥- القرطاجنى أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤هـ) . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة . الطبعة الثالثة دار الغرب الإسلامي بيروت- ١٩٨٦م.

١٦- القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ) . الجامع لأحكام القرآن . صححه : أحمد عبدالحليم البردونى. أبو إسحاق إبراهيم أطفيش . الطبعة الثالثة دار الكتاب العربي – ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .

١٧- القسطلاني شهاب الدين (ت ٨٥١هـ) . لطائف الإشارات لفنون القراءات . تحقيق وتعليق: عامر السيد عثمان . دكتور عبد الصبور شاهين . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . لجنة إحياء التراث الإسلامي . القاهرة – ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .